الفصل الثاني

من رحيق السيرة

١- غـــزوة ذات الرقـــاع

٢- عمـــــرة القضـــــاء

٣- ســـــرية مؤتـــــة

٤- ســـرية ذات السلاســـل

٥- فـــــتح مكـــــة

٦- غـــــزوة حـــــنين

٧- غـــــزوة تبـــــوك

١ - غزوة ذات الرقاع[١]

بلغ النبي ﷺ أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان يتهيئون لغزو المسلمين، فأسرع النبي ﷺ بالخروج إليهم في شهر ربيع الأول سنة ٧هـ[٢]، فسار وتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له (نخل) على بعد يومين من المدينة، فلقي به جمعًا عظيمًا من غطفان، فتقارب الفريقان، فخاف بعضهم بعضًا حتى صلى النبي ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، ولم يحدث قتال بين الفريقين[٣]

في الجهاد عناء ومشقة

وفي هذه الغزوة لقي النبي ﷺ وصحابته عناءً شديدًا لقلة ما يُحملون عليه، ولسيرهم على أقدامهم مسافات طوال، حتى نَقِبَت[٤] أقدامهم وسقطت أظافرهم، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا، وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الخِرَقَ.. [رواه البخاري، من الحديث ٣٨١٦]

هكذا الجهاد عناء وشدة ومشقة، ولهذا قال أئمة الإصلاح [إن الجهاد من الجهد، والجهد هو التعب والعناء، وليس مع الجهاد راحة حتى يضع

١- سميت بذات الرقاع؛ لأن الصحابة كانوا يلفون الخرق على أرجلهم لما أصابها من كثرة المشي

٢- وقيل انها وقعت سنة ٤ هـ

٣- انظر البخاري الحديث ٣٨١٥، وسيرة ابن هشام

٤- نقب رقّ

الصال أوراره، وعند الصباح يحمد القوم السري]'.

الله خير الحافظين

وأثناء العودة من الغزوة نزل النبي ﷺ تحت شجرة، وعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرَّق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فجاء رجل فأخذ سيف النبي ﷺ دون أن يشعر به ثم قال من يمنعك مني؟، قال:"الله ﷻ"، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال."مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي" قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ "أَتَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ؟" قَالَ: لا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَلا أُقَاتِلَكَ وَلا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ. [رواه أحمد، من الحديث ١٤٦٥٧]

لا نُؤتينَّ الإسلام من قِبَلك.

ونزل المسلمون منزلاً أثناء عودتهم من الغزوة، فقام رجلان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار لحراسة المسلمين'، فقال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه؟ قال اكفني أوله، فنام المهاجري وقام الأنصاري يصلي، فأتى رجل من المشركين، فرمى الأنصاري بسهم وهو يصلي، فنزعه وأكمل صلاته، فرماه المشرك بسهم آخر، فنزعه واستمر في صلاته، فرماه بثالث، فنزعه وركع وسجد، ثم أيقظ صاحبه المهاجري، فلمَّا رأى صاحبه ما به من دماء قال سبحان الله، ألا

١- حسن الباشا، مجموعة الرسائل، ص٦٩، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢- الأنصاري هو الصحابي عباد بن بشر، والمهاجري هو الصحابي عمار بن ياسر، رضي الله عنهما

أهستي[1]، قال الأنصاري: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها[2]، فلمَّا تابع الرمي، ركعت فأُريتك، وايم الله لولا أن أصيّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أُنفذها. [رواه احمد، الحديث ١٤١٧٧]

*****

١- أهستي: انتهى

٢- أُنفذها: انتهي منها

٢- عمرة القضاء

خرج النبي ﷺ وصحابته في شهر ذي القعدة سنة ٧هـ ليؤدوا مناسك العمرة التي مُنعُوا من أدائها وفقًا لبنود صلح الحديبية، وخرج المسلمون وهم مستعدون بالسلاح خشية أن تغدر بهم قريش، فلمَّا بلغوا يأجُج[١] وضعوا السلاح كله، وحلفوا عليه بعض المسلمين، ودخلوا مكة بسلاح الراكب فقط.

أروا أهل الباطل منكم قوة

قبل أن يدخل المسلمون مكة أشاعت قريش أن المسلمين يعانون عُسرةً وجهدًا، وقالوا. يَقدم عليكم قوم وهنتهم[٢] حُمَّى يثرب، ولقوا منها شدة، ثم جلسوا مما يلي الحِجْر ليشاهدوا المسلمين وهم يطوفون.

ورعةً من النبي ﷺ في إظهار قوة المسلمين أمر أصحابه"أَنْ يَرْمُلُوا[٣] ثَلاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ"[٤] [رواه مسلم، الحديث ٢٢٢٠]

وبالفعل تحقق مقصد النبي ﷺ، حتى أُعجب المشركون بقوة المسلمين، وقالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمَّى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا

١- يأجج مكان على بعد ثمانية أميال من مكة

٢- وهنتهم أضعفتهم

٣- يرملوا يمشون بسرعة تقارب الجري

٤- جلدهم تجلدهم وقوتهم

للحرب أساليب عدة

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة أخذ عبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ﷺ وهو يقول

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... اليَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ[1] ... وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ "خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ[2]" [رواه الترمذي، من الحديث ٢٧٧٤]

حكمة النبي ﷺ تجمع القلوب

ولما قُضي الأجل المتفق عليه وهو ثلاثة أيام، أتى المشركون عليَّ بن أبي طالب، وقالوا له: قل لصاحبك: اخرج عنَّا، فقد مضى الأجل، فخرج المسلمون عن مكة، وأثناء خروجهم تبعتهم ابنة حمزة وهي تنادي: يا عمِّ يا عمِّ، فتناولها عليٌّ بن أبي طالب ﷺ فأخذ بيدها، فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر، فقال عليٌّ: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ "الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ" وَقَالَ لِعَلِيٍّ "أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ" وَقَالَ لِجَعْفَرٍ "أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي" وَقَالَ لِزَيْدٍ "أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا" [رواه البخاري، من الحديث ٢٥١٠]

١- الهَامَ عن مَقِيله: الرأس عن موضعها

٢- نضح النبل: رمي السهام

وهكذا تحكمته ﷺ يفض الاختصام بين أصحابه الثلاثة، وكل منهم يشعر بالفوز بما خصَّه به النبي ﷺ.

لتضيق الهوَّة بيننا وبين خصومنا

وتروح النبي ﷺ في هذه العمرة بميمونة بنت الحارث، فعقد عليها بمكة، وبنى بها بسرف[1].

وفي رواية بميمونة بنت الحارث معنى هام، ألا وهو محاولة التقارب مع الخصوم، والحرص على تأليف قلوبهم، فهدف المسلم ليس إذلال خصومه أو إهانتهم، بل هدفه هداية الناس جميعًا بما فيهم هؤلاء الخصوم.

*****

١- سرف: مكان قريب من مكة

٣- سرية مؤتة

دم المسلم عالٍ:

عزَّ على المسلمين مصرع رسولهم[١] الذي أرسله النبي ﷺ إلى أمير بصرى، والطريقة الشائنة التي عومل بها، فقد عَرَض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر - وأوثقه، ثم ضرب عنقه، فاشتد ذلك على المسلمين، وعزموا على الاقتصاص لرسول رسولهم، وزلزلة هذا الوالي الأثيم الذي فعل ذلك لحساب الروم.

القائد يحدد المهام والمسئوليات:

تجهَّز المسلمون في جيش بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم النبي ﷺ زيد بن حارثة، وقال: "إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ" [رواه البخاري، من الحديث ٣٩٢٨]

وخرج الجيش في شهر جمادى الأولى، سنة ٨هـ.

الإيمان عُدَّتنا وسر قوتنا

وسار الجيش حتى نزل [معان] من أرض الشام، وحينئذٍ بلغت الاستخبارات المسلمة أن جيش الروم يبلغ عدده مائة ألف، كما انضم إليه مائة ألف أخرى من نصارى العرب، فتوجَّه المسلمون بهذا الجيش الضخم، فأقاموا ليلتين بمعان يفكِّرون في أمر هذا الجيش العرمرم[٢]، فقال نفر منهم:

١- هو الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي

٢- العرمرم الكثير الشديد

يكتب إلى رسول الله ﷺ فيخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له

فقال عبد الله بن رواحة:"يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحُسنَيَيْن، إما ظهور وإما شهادة".

وهذه الكلمات الملتهبة انتفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد، وقرَّروا القتال مهما كانت النتائج

وهكذا سلَّم عبد الله بن رواحة ﷺ المسلمين إلى أعز ما يملكون من أسلحة، ألا وهو سلاح الإيمان، وكذلك يسلِّم إليه أئمة الإصلاح حين قال أحدهم. [والإيمان سر من أسرار القوة الذي لا يدركه إلا المؤمنون الصادقون، وهل جاهد العاملون من قبل وهل يجاهدون من بعد إلا بالإيمان؟! وإذا فُقِد الإيمان فهل تغني أسلحة المادة جميعًا عن أهلها شيئًا؟ وإذا وُجِد الإيمان فقد وُجِد السبيل إلى الوصول، وإذا صدق العزم وضح السبيل، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾][1].

إقدام واستشهاد:

وتحرك الجيش حتى نزل مؤتة[2]، فالتقى الجمعان، فقاتل زيد بضراوة بالغة وبسالة لا نظير لها حتى قُتِل، فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، وأقبل على

١- حسن أيوب، مجموعة الرسائل، ص ٢٦٩، ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢- مؤتة قرية بالشام بعد عن بيت المقدس حوالي ٧كم

الروم بخالدهم بعنف، فقُطعَت يمينه، فأخذ اللواء بشماله، فقُطعَت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتِل، فحمل عبد الله بن رواحة اللواء، فحمل يسترجل نفسه، وهو يقول

يا نفسُ إلا تُقتَلي تموتي ... هذا حِمام الموت[1] قد صَليتِ[2]

وما تمنَّيتِ فقد أُعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هديتِ

ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل.

الكفاءة معيار الاختيار

وبعد مقتل عبد الله بن رواحة، أخذ الراية ثابت بن أرقم، فقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا أنت، فقال أبى أن يكون القائد، لا مكروهًا عن الموت، ولكن لعلمه بوجود من هو أكفأ منه، فاصطلح المسلمون على اختيار خالد بن الوليد، فقاتل خالد قتالاً شديدًا حتى انقطع في يده تسعة أسياف

حسن التعامل مع الواقع

وأراد خالد بن الوليد الانحياز بجيش المسلمين حتى يحافظ على الآلاف التي معه، فعبَّأ الجيش من جديد، فجعل مقدِّمته ساقة[3]، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فلمَّا رآهم الروم أنكروا حالهم، وقالوا جاءهم مدد، ووقع

---

١ - بدون قدر الموت

٢ - حسب سنته وبعيه

٣ - ضد التراجع

٤ - كمين

٥ - مؤخرة الجيش

الرعب في قلوبهم، ثم أحد خالد يتأخر بالجيش مع المحافظة على نظامه، ولم يتبعهم الرومان ظنًا منهم أن المسلمين يقومون بمكيدة حربية ترمي بهم إلى الصحراء

وهكذا اختار[1] المسلمون إلى المدينة سالمين، قد حافظوا على سمعة المسلمين في أول لقاء لهم مع الدولة العظمى في ذلك الحين

النبي ينعي أصحابه ويزكّي خالدًا

وقبل أن تصل أخبار الجيش إلى المدينة، خطب النبي ﷺ الناس فقال "أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ- وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ- حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ". [رواه البخاري،من الحديث ٣٩٢٩]

النبي يواسي أهل جعفر.

وبعد ثلاثة أيام أتى النبي ﷺ أهل جعفر بن أبي طالب، فقال."لا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ، ادْعُوا لِي ابْنَيْ أَخِي"، يقول عبد الله بن جعفر فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ[2]، فَقَالَ:"ادْعُوا إِلَيَّ الْحَلاقَ"، فَجِيءَ بِالْحَلاقِ، فَحَلَقَ رُءُوسَنَا ثُمَّ قَالَ."أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي"، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَشَالَهَا[3]، فَقَالَ:"اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ

١- اختار. توجه

٢- افرخ ولد الطائر

٣- أشالها رفعها

وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللهِ فِي صَفْقَةِ[1] يَمِينِهِ قَالَهَا ثَلاثَ مِرَارٍ، فَجَاءَتْ أُمُّنَا فَذَكَرَتْ لَهُ يُتْمَنَا وَجَعَلَتْ تُفْرِحُ[2] لَهُ، فَقَالَ "العَيْلَةَ[3] تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا وَلِيُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؟!" [رواه أحمد، من الحديث ١٦٥٩]

*****

١- صفقة يمينه البيع
٢- تفرح تشكو الفقر
٣- العيلة الفقر

٤- سرية ذات السلاسل

نقلت استخبارات المدينة أن جموعًا من قضاعة قد تجمَّعوا يريدون غزو المدينة[١]، فخرج إليهم عمرو بن العاص في شهر جمادى الآخر[٢] سنة ٨ هـ، ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فلمَّا اقترب من القوم بلغه أن عددهم كبير، فبعث إلى النبي ﷺ يستمدُّه، فبعث إليه النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، وفيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجهه "لا تختلفا". [ابن إسحاق بسند صحيح]

إذا عزَّ أخوك فهُن:

لمَّا وصل أبو عبيدة قال له عمرو: إنما جئتَ مددًا لي، فقال له أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه. فقال عمرو: أنت مدد لي

وكان أبو عبيدة رجلاً ليِّنًا سهلاً هيِّنًا عليه أمر الدنيا، فقال: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك. قال عمرو: فإني أمير عليك، وإنما أنت مدد لي، قال. فدونك.

فصلى عمرو بالناس، وتولى قيادهم جميعًا[٣]، ولعل عمرو بن العاص القائد الأصلي للمعركة، والموقف لا يحتمل تعيير القائد؛ ولذلك فقد آثر أن

١- وقيل في سببها أن المسلمين ارادوا إيقاع الفرقة بين الروم والقبائل العربية، وعقد تحالفات مع هذه القبائل دون الروم

٢- وقيل في شهر شعبان

٣- انظر سيرة ابن هشام

يستمر في القيادة حتى يُزال الخطر

إتمام للمهمة على أكمل وجه

وأخذ عمرو يطارد هذه القبائل، فتوغل في بلادهم، وكلما انتهى إلى موضع قيل له كان هناك جمع، فلمَّا سمعوا بك تفرَّقوا

ولقي في آخر الأمر جمعًا من هذه الجموع المحتشدة، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرَّقوا، وبعث عمرو بمالك بن عوف الأشجعي إلى النبي ﷺ ليخبره بقفولهم[1] وما كان في عزومهم

ما جعل عليكم في الدين من حرج

وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة، وخشي على نفسه إن اغتسل أن يغتلَّ، فتيمَّم وصلَّى بالناس، وكأن بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو، فلمَّا عادوا إلى المدينة شكوا ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ "يَا عَمْرُو، صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ"، فقال عمرو إني سمعتُ الله يقول ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2] فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا [رواه أبو داود، من الحديث ٣٨٣]

*****

١- قفولهم رجوعهم

٢- من الآية ٢٩ من سورة النساء

٥- فتح مكة

وفاء المسلمين وغدر المشركين.

بعد صلح الحديبية ظل المسلمون يوفون بعهدهم مع قريش فيما أحبوا وفيما كرهوا، إلا أن قريشًا أبت أن توفي بعهدها مع المسلمين، فها هي تمدُّ حلفاءها من بني بكر بالسلاح وتعاونهم على مهاجمة خزاعة حلفاء الرسول ﷺ وقتلهم، حتى قتلوا بعض خزاعة داخل الحرم، فهرعت خزاعة لما أصابها، وأرسلت وفدًا إلى المدينة بقيادة عمرو بن سالم، ليخبر النبي ﷺ بما قامت به بنو بكر وقريش من غدر ونقض لعهد النبي ﷺ وحلفائه

التزام بالعهود والمواثيق

وما إن وصل عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، وأخبر النبي ﷺ بما ارتكبته بنو بكر وقريش من مقتلة عظيمة في خزاعة، حتى قال النبي ﷺ "**نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم**" [ابن إسحاق سند ضعيف]

هكذا يُعلن النبي ﷺ نصرته لخزاعة، ليُعلِّم من حلفه من المسلمين الحدية في نصرة حلفائهم، والوفاء بمواثيقهم.

رابطة العقيدة تعلو كل الروابط

وأدركت قريش-بعد فوات الأوان- خطأها الفادح، فأرسلَتْ أبا سفيان إلى المدينة ليحاول أن يُعيد للعهد الذي أهدرته قريش خُرمه، فلمَّا بلغ أبو سفيان المدينة دخل على ابنه أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فلمَّا أراد أن يجلس

على الفراش طوته عنه، فقال: يا بنيَّة، ما أدري أرعتِ لي عن هذا الفراش أم رعتِ به عني؟ فقالت. بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال والله لقد أصابك يا بُنيَّة بعدي شر[1]

هكذا تُعلِّمنا السيدة أم حبيبة -رضي الله عنها- أن رابطة العقيدة أسمى الروابط وأعلاها، وأن المسلم يحدد طبيعة علاقته بالناس بناءً على قربهم أو بعدهم عن عقيدة الإسلام، ولذلك يُعلن أئمة الإصلاح أنهم: [يرون الناس بالنسبة إليهم قسمين: قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله وكتابه وآمن بعثة رسوله وما جاء به، وهؤلاء تربطهم أقدس الروابط، رابطة العقيدة، وهي عندنا أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض، فهؤلاء قومنا الأقربون الذين نَحِنُّ إليهم، ونعمل في سبيلهم، ونذود عن حماهم، ونفتديهم بالنفس والمال في أي أرض كانوا، ومن أية سلالة انحدروا. وقوم ليسوا كذلك ولم ترتبط معهم بعد هذا الرابط، فهؤلاء بسالمهم ما سالمونا، ونحب لهم الخير ما كفُّوا عدوانهم عنَّا، ونعتقد أن بيننا وبينهم رابطة هي رابطة الدعوة، علينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه لأنه خير الإنسانية كلها، وأن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدَّد لنا الدين نفسه من سبل ووسائل، فمن اعتدى علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين][2]

١- انظر سيرة ابن هشام

٢- نحن الدعاة، مجموعة الرسائل، ص ٢٤، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية

محاولات فاشلة:

ثم خرج أبو سفيان من عند ابنته أم حبيبة- رضي الله عنها- حتى أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئًا[1]، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: ما أنا بفاعل، فتركه إلى عمر بن الخطاب، فقال عمر. أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر[2] لجاهدتكم به، فأتى عليًّا، فقال له: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فعاد أبو سفيان إلى قومه، وقد فشلت محاولاته في تحميل صورة قريش[3].

صالحات المرء تقيل[4] عثراته:

وبدأ المسلمون يعبئون قواهم ويعدُّون أنفسهم ليصروا حلفاءهم الذين استباحت بنو بكر وقريش دماءهم، كان هذا الإعداد يتم وهم حريصون كل الحرص على إخفاء الجهة التي يريدون غزوها، لئلا تستعد قريش فتُستباح حرمة البلد الحرام، وتمتلئ أرجاؤه بأشلاء القتلى ودمائهم.

وفي ظل هذه الأوقات الحاسمة والكتمان والسرية الشديدة التي يتم فيها الإعداد للردِّ على غدر قريش، يُرسل الصحابي حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابًا مع امرأة يخبرهم فيه بمسير رسول الله ﷺ إليهم، فأخبر الله ﷻ نبيه ﷺ

١- رواه بن إسحاق بدون إسناد

٢- الذر صغار النمل وهو كناية عن الشيء القليل الصغير

٣- انظر سيرة بن هشام

٤- تقيل تغفر

بأمر هذا الكتاب، فبعث النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب وأبا مرثد الغنوي والزبير بن العوام في طلب المرأة، فلمَّا أدركوها أنكرت وجود الكتاب معها، فمشتوا رحلها فلم يجدوا شيئًا، فهددوها بتجريدها من ثيابها لإخراج الكتاب، فأخرجته من شعرها، ودفعوا به إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لحاطب "**مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟**" قال: مَا بي إلا أنْ أكونَ مُؤْمِنًا بالله وَرَسُولِهِ، وَمَا غَيَّرْتُ وَلا بَدَّلتُ، أَرَدْتُ أنْ تَكُونَ لي عِنْدَ القَوْمِ يَدًا يَدْفَعُ اللهُ بِهَا عَنْ أَهْلي وَمَالي، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إلا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالﷺ "**صَدَقَ، فَلا تَقُولوا لَهُ إلا خَيْرًا**"، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فقال صلى الله عليه وسلم "**يَا عُمَرَ، وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَ اللهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ**" فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. [رواه البخاري، من الحديث ٥٧٨٩]

وهذا العفو والتقدير السمح من النبي ﷺ يعلمنا ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن نخطئون حينًا بعد أن أحسنوا طويلاً

لكل وقت فريضته

وتحرَّك جيش المسلمين الذي بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل نحو مكة، في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ، فلمَّا دنا الجيش من مكة حتى النبي ﷺ أن يكون الصيام مُضعفًا لأصحابه عند منازلة مشركي مكة، فقال

١- بدر بعمل ومثله

صلى الله عليه وسلم: "إِنَّكُمْ تُصَبِّحُونَ عَدُوَّكُمْ، وَالفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا" [رواه ابو داود، من الحديث ٥٤ ٢]

ورغم هذا التوجيه من النبي ﷺ بالفطر، إلا أن البعض كرهوا ذلك، فلم يفطروا، فقال عنهم النبي ﷺ "أُولَئِكَ العُصَاةُ، أُولَئِكَ العُصَاةُ"[1] [رواه مسلم، من الحديث ١٨٧٨]

لكل قلب مفتاحه

وواصل المسلمون زحفهم نحو مكة حتى بلغوا مر الظهران، فأوقدوا نارًا عظيمة أضاء من شدتها الوادي، وفي هذا الوقت خرج أبو سفيان وبعض رجال مكة ليستطلعوا الأخبار، فالتقى بالعباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، فاصطحبه العباس إلى معسكر المسلمين، فلمَّا أصبح غدا به إلى النبي ﷺ، فأعلن أبو سفيان إسلامه بين يدي النبي ﷺ، فقال العباس "يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الفَخْرَ، فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئًا؟ قَالَ "نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ" [رواه ابو داود، من الحديث ٢٦٢٦]

قوة المسلمين ترهب الأعداء وتردعهم

وأراد النبي ﷺ أن يُري أبو سفيان قوة المسلمين حتى لا تحدّثه نفسه بمقاومتهم، وليقل أيضًا هذه المشاعر اليائسة إلى قومه، فيتم الفتح دون انتهاك لحرمات البلد الحرام، فقال صلى الله عليه وسلم لعمه العباس "احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ

١- ويحمل هذا على من تضرر من الصيام كما قال النووي، لأنه سيضعف عن مقاتلة الاعداء

عِنْدَ حَطْمِ الخَيْلِ[1]، حَتَّى يَطْرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ. [رواه البخاري، من الحديث ٣٩٤٤]

قال العباس ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: سليم، فيقول مالي ولسليم؟ ثم تمر به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة، فيقول: مالي ولمزينة؟ حتى نفدت القبائل، حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرَى منهم إلا الحُدَق[2] من الحديد، فقال: سبحان الله، يا عباس، من هؤلاء؟ قلت. هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال ما لأحد هؤلاء من قِبَل ولا طاقة، ثم عاد إلى قومه، فقال لهم مُحذِّرًا: هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا. قاتلك الله، وما تغني عنَّا دارك؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد

بفتح البلاد فصون حرماتها.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلمَّا مرَّ بأبي سفيان قال له. اليوم يوم الملحمة[3]، اليوم تُستَحَل الكعبة، فأخبر أبو سفيان النبي ﷺ بقول سعد، فقال صلى الله عليه وسلم: "كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ" [رواه البخاري، من الحديث ٣٩٤٤]

١- حطم الخيل الموضع الضيق الذي تحطم فيه الخيل، اي يدوس بعضها بعضًا

٢- الحدق. سواد العين

٣- الملحمة القتل الشديد

هكذا يرفض النبي ﷺ مقولة سعد بن عبادة، ليعلم المسلمين ألا يُفتنوا بسَوْرة النصر، فيتهكوا الحرمات ويسفكوا الدماء، ويحثُّهم على تعظيم الحرمات والبعد عن العدوان.

وفي ضوء ذلك نفهم قول دعاة الإصلاح: [إن الإسلام لم يعمل التحذير من سَوْرة النصر[1]، وبنشوة الاعتزاز، وما تحمله من محاسبة للعدالة، وهضم للحقوق فحذَّر المسلمين العدوان على أية حال][2].

ونجح المسلمون في أن يدخلوا مكة دون إراقة للدماء، إلا ما كان من عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ومن كان معهم من سفهاء قريش، حينما حاولوا مقاومة فرقة خالد بن الوليد، فقاتلهم خالد، فهربوا مبهرمين

النبي ﷺ يمحو آثار الشرك

وحينما دخل النبي ﷺ مكة، كان حول الكعبة ثلاث مائة وستون نُصُبًا[3]، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ، وَيَقُول."جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلِ، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلِ وَمَا يُعِيدُ" [رواه البخاري، من الحديث ٣٩٥٠]

وأراد النبي ﷺ أن يدخل الكعبة، ولكنه أبى أنْ يَدْخُل الْبَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ[4]، فَأَمَرَ بِهَا، فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل فِي أَيْدِيهِمَا

---

١ -سورة: اى شدة، والمقصود شدة الفرح بالنصر

٢- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ١٦٣، ط- دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣- نصبًا: ما نصب للعبادة دون الله تعالى

٤- الآلهة: الأصنام

مِنَ الأَزْلامِ[1]، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ "قَاتَلَهُمُ اللهُ، لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ، ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي الْبَيْتِ. [رواه البخاري، من الحديث ٣٩٥١]

يعفو حين يقدر

وخطب رسول الله ﷺ في الكعبة فقال "يا مَعشَرَ قُرَيش، ما تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بكم؟" قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال "اذهَبُوا فَأَنتُمُ الطُّلَقَاء" [ابن إسحاق بسند ضعيف]

هكذا يعفو النبي ﷺ عمَّن آذوه وعذبوا أصحابه بمكة، وحاربوه وقاتلوه وهو بالمدينة، ليعلِّم الناس أن [القائد المسلم أستاذ، يتصف بكل ما يجب أن يتحلى به الأستاذ من نور وهداية ورحمة ورأفة][2]

بِرٌّ ووفاء

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه عليُّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يد النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ، اجمع لنا الحجابة والسقاية[3]، صلَّى الله عليك، فقال رسول الله "أينَ عُثمَان بن طَلْحَة؟" فدُعي له، فقال "هَاكَ مِفْتَاحَكَ يا عُثْمَان، اليوم يوم بِرٍّ وَوَفَاء" [ابن إسحاق بسند ضعيف]

١- الأزلام: القداح وهي أعواد كتبوا في احدها افعل، وفي الآخر لا تفعل، وفي الثالث لا شيء، فاذا اراد أحدهم السفر ألقاها في الوعاء ثم يأتمر بما يخرج منها

٢- حسن الساعاتي، مجموعة الرسائل، ص٣٥، طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣- الحجابة: حفظ الكعبة ورعايتها، والسقاية: سقاية الحجيج

الإسلام يعرف للمرأة مكانتها

وقد استحار[1] رجل من المشركين[2] بأم هانئ ست عم النبي ﷺ، وأراد أخوها عليُّ بن أبي طالب ﷺ أن يقتله، فمنعته منه، وأتت النبي ﷺ فقالت. يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ، فُلانَ ابْنَ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ" [رواه البخاري، من الحديث ٣٤٤]

مشاعر نبيلة بين القائد وجنده:

وأتى رسول الله ﷺ الصَّفَا فَعَلاهُ، حَيْثُ يُبْطَرُ إِلى الْبَيْتِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَذْكُرُ اللهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَذْكُرَهُ وَيَدْعُوهُ، وَالأَنْصَارُ تَحْتَهُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ. أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، فقال ﷺ "يَا مَعَاشِرَ الأَنْصَارِ، أَقُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ؟" قالوا قُلْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ "فَمَا اسْمِي إِذن؟ كَلا، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولونَ وَاللهِ مَا قُلْنَا الذِي قُلْنَا إلا الضِّنَّ[3] بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "فَإِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذُرَانِكُمْ"[4] [رواه احمد، من الحديث١٠٥٢٦]

*****

١- استجار طلب الدخول في جوارها

٢- قيل إنه ممن قاتلوا فرقه خالد بن الوليد

٣- النص الاختصاص بمودته

٤- يعذرانكم قبلا عذركم

٦- غزوة حنين

وبفتح مكة تم القضاء على رمز الوثنية في جزيرة العرب، ودانت جموع العرب للإسلام، إلا أن بعض القبائل الشرسة القوية المتعطرسة- وفي مقدمتها هوازن وثقيف- أبت أن تُسلم مع من أسلم، بل واجتمعت هذه القبائل إلى مالك بن عوف يريدون المسير إلى المسلمين ومقاتلتهم

غرور القوة يُعمي البصيرة:

وأمر مالك بن عوف الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم ودراريهم[1]، ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحُرمته وراءه فلا يفر عنها، فاعترضه دريد بن الصمة وهو شيخ فارس مجرب قائلاً له: وهل يردُّ المنهزم شيء؟ إن كانت الدائرة لك لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك، فرفض مالك هذا الرأي قائلاً لدريد: إنك قد كبرت وكبر عقلك. وأصر مالك على خطته، واستسلم القوم لرأيه.

المسلمون أنبل الفاتحين:

وعلم المسلمون بأمر خروج هذه القبائل، فخرجوا إليهم في شهر شوال سنة ٨ هـ في اثني عشر ألف مقاتل، ويبدو أن تعداد المسلمين من السلاح لم يكن كافيًا لهذا العدد الكبير من الجنود، فاستكمل النبي ﷺ هذا النقص في العتاد بالاستعارة من صفوان بن أمية، ولم يأخذه ﷺ غصبًا رغم أنه الفاتح

١- دراريهم أطفالهم

المنتصر صاحب العلمة، كما حكى ذلك صفوان نفسه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَعَارَ مِنْهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَدْرَاعًا[1]، فَقَالَ: أَغَصْبًا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: "لَا، عَارِيَةٌ[2] مَضْمُونَةٌ" [رواه أحمد، من الحديث ٢٦٣٥٢]

ولو شاء النبي ﷺ أن يأخذها غصبًا لفعل، ولكنها أخلاق الإسلام النبيلة، وفي ضوء ذلك نفهم قول أئمة الإصلاح عن المسلمين أنهم [يسيحون في آفاق البلاد فاتحين معلمين، يحررون الأمم كما تحرروا، ويهدونها نور الله الذي اهتدوا به، ويرشدونها إلى سعادة الدنيا والآخرة، لا يغلون، ولا يغدرون ولا يظلمون، ولا يعتدون، ولا يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا][3]

ثقة في الحق واستبشار بالنصر:

وأرسل المسلمون عيونهم تسبق الجيش ليستطلعوا عدة عدوهم وقوتهم وهيئتهم، فعاد فارس من هؤلاء إلى النبي ﷺ فقال. يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَشَائِهِمْ[4]، اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: "تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ" [رواه أبو داود، من الحديث ٢١٤]

١- أدرعًا جمع درع وهو الذي يلبس في الحروب

٢- عارية قرض

٣- حسن الباء، مجموعة الرسائل، ص ٢٣٥، طـ دار التوزيع والنشر الإسلامية

٤- ظعنهم النساء، نعمهم ماشيتهم

لا نستمد العون إلا من الله.

وتحرك جيش المسلمين نحو حنين، حتى إذا رأوا شجرة عظيمة يُقال لها ذات أنواط، كان العرب يُعلِّقون عليها أسلحتهم تبركًا بها، ويبيتون عندها، ويعكفون حولها، فقال بعض من في الجيش: يَا رَسُول الله، اجْعَل لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ "سُبْحَانَ الله، هَذَا كَمَا قَال قَوْمُ مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ" [رواه الترمذي، من الحديث ٢١٠٦]

الإعجاب بالنفس بداية السقوط

وواصل جيش المسلمين سيره، وقد سيطرت عليه مشاعر الإعجاب بكثرة عدده، حتى قال أحدهم لن نُغلب اليوم من قلة، وفي عماية الفجر[1] استقبل الجيش وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمائن قد أعدَّها مالك بن عوف بالليل، فبينما هم ينحدرون إذا بوابل من السهام يتساقط عليهم، فحدث اضطراب في صفوف المسلمين، فاستغل رجال مالك بن عوف هذا الارتباك، فتدفَّقوا على المسلمين شدَّة رجل واحد، فرجع المسلمون لا يلوي[2] أحد على أحد، فكانت هزيمة منكرة.

تبات القائد يحيل الهزيمة نصرًا.

وفي هذه الأوقات العصيبة تتجلى شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها، فهي

١- عماية الفجر ظلمة الفجر

٢- لا يلوي لا يلتفت

الوقت الذي يمر فيه حيثه ترى النبي ﷺ يتقدَّم نحو العدو كما روى عنه عمه العباس: فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ[1] بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ . وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَلا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ[2] آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ[3] فَقَالَ عَبَّاسٌ - وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا - فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ فَوَاللهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ[4] حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ البَقَرِ عَلَى أَوْلادِهَا، فَقَالُوا يَا لَبَّيْكَ، يَا لَبَّيْكَ [رواه البخاري، من الحديث ٣٣٢٤]

وأحدث كتائب المسلمين تتلاحق عائدة الواحدة تلو الأخرى، وبدأت المعركة الحقيقية بين المسلمين وهوازن، فتحالد الفريقان محالدة شديدة، وحمي حمي الوطيس[5] أَحَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ، فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ قَالَ العباس فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا القِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى . فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا رِئْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً[6] وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا [رواه مسلم، من الحديث ٣٣٢٤]

وما هي إلا ساعات قلائل حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، فهرب بعضهم إلى أوطاس وبعضهم إلى نخلة، وأما معظم فلولهم فقد لجأوا إلى الطائف

١- يركض: يجري

٢- هو أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ، وليس أبو سفيان بن حرب

٣- أصحاب السمرة: أصحاب بيعة الرضوان

٤- عطفتهم: عطف أي حنين

٥- حمي الوطيس: اشتدت المعركة والقتال

٦- حدهم كليلا: قوتهم ضعفت

وتحصنوا بها

وللمرأة نصيب في الجهاد

عن أنس ﷺ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا، فَكَانَ مَعَهَا، فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ، فَقَالَ لَهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَا هَذَا الْخِنْجَرُ؟ قَالَتْ اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ[1] بِهِ بَطْنَهُ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ. [رواه مسلم، من الحديث ٣٣٧٤]

هكذا المرأة المسلمة، حريصة شجاعة، تشارك الرجال في ميدان الجهاد، فتراها تخدم المقاتلين، وتداوي الجرحى، وتحمل القتلى، فإن احتاج القتال إليها حملت سيفها لتقاتل بنفسها

لا تمس المدنيين الأبرياء بسوء:

روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ مرَّ يومئذٍ بامرأة، وقد قتلها خالد بن الوليد، والناس متقصفون[2] عليها، فقال: ما هذا؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال عليه السلام لبعض من معه: **"أَدْرِكْ خَالِدًا، فَقُلْ لَهُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَاكَ أَنْ تَقْتُلَ وَلِيدًا أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَسِيفًا"**[3].

هكذا الإسلام دين الرحمة والإنسانية، ينهى المسلمين عن قتل من لا حمل السلاح أمامهم، وهكذا نبيه الذي يغضب لقتل امرأة، وليس كما

١- بقرت شققت

٢- متقصفون متدافعون متزاحمون

٣- عسيفًا الأجير انظر سيرة بن هشام، وروى هذا الحديث أبو داود وأحمد وابن ماجة دون تعيين للغزوة

يفعل العازون اليوم

وفي ضوء ذلك نفهم قول أئمة الإصلاح عن المسلمين، أنهم [حيما يقاتلون لا يعتدون، ولا يَفْجُرون، ولا يُمَثلون[1]، ولا يسرقون، ولا ينتهبون الأموال، ولا ينتهكون الحرمات، ولا يتقدَّمون بالأذى، فهم في حربهم غير محاربين، كما أنهم في سلمهم أفضل مسالمين][2].

قائد يشفق على جنده.. ويحترم رأيهم:

وبعد أن جمع المسلمون غنائم حنين وجعلوها في الجعرانة، قصدوا الطائف لمناجزة[3] مالك بن عوف ومن معه، فعسكروا قريبًا من الحصن، فرماهم المشركون بالنبل رميًا شديدًا، فأُصيب نفر من المسلمين، حتى اضطر الجيش أن يتأخر عن مواقعه، ودام حصار الطائف أربعين ليلة دون أن ينال المسلمون منهم شيئًا، فأراد النبي ﷺ أن يتركهم وشأنهم، فقال: "إِنَّا قَافِلُونَ[4] إِنْ شَاءَ اللهُ" قَالَ أَصْحَابُهُ نَرْجِعُ وَلَمْ نَفْتَتِحْهُ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اغْدُوا عَلَى القِتَالِ" فَغَدَوْا عَلَيْهِ، فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ "إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا"، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. [رواه مسلم من الحديث ٣٣٢٩]

النبي ﷺ يؤلِّف قلوب المسلمين الجدد:

وبعد عودة النبي ﷺ من حصار الطائف، شرع في توزيع الغنائم، فأغدق

١- يمثلون: يقطعون من أجسادهم بكلام

٢- حسن الباء، مجموعة الرسائل، ص ٤٣٥، طـ دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣- مناجزة: قتال

٤- قافلون: عائدون

العطاء لرؤساء القبائل وأشراف مكة، كأبي سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وعيينة بن حصن، وغيرهم، يريد رسول الله ﷺ بذلك تأليف قلوبهم وغسل عداوتهم وتوثيق حبِّهم للإسلام

وقد أتت هذه السياسة الحكيمة من النبي ﷺ نتائج مبهرة، لخصها صفوان بن أمية في قوله:"وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ" [رواه مسلم، من الحديث ٤٣٧٧]

ثم قسَّم النبي ﷺ ما بقي من الغنائم على سائر العرب، ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا منها

النبي ﷺ يسترضي الأنصار

ووجد الأنصار في أنفسهم من هذه القسمة بعض الضيق، حتى قال بعضهم: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فأمر النبي ﷺ بجمعهم، ثم قام فيهم خطيبًا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ:"يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ[1] وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟" قَالُوا: بَلِ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ "أَلاَ تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟" قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَللهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ؟ قَالَ:"أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ:

١- وجدة حزن

أَتَيْتَنَا مُكَذِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ؟ أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا[2] وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، فَبَكَى القَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا[3] لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قِسْمًا وَحَظًّا. [رواه أحمد، من الحديث ١١٣٠٥]

المسلم صاحب رسالة، لا طالب دنيا.

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مُسلمًا، وسألوا رسول الله ﷺ أن يردَّ عليهم سبيهم وأموالهم، فقال لهم: "إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وَأَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، إِمَّا المَالَ وَإِمَّا السَّبْيَ قَالوا. فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ، فَقَالَ النَّاسُ:

١- لعاعة النبات الأخضر قليل البقاء.

٢- شعبًا طريق

٣- أخضلوا لحاهم بللوها من الدموع

طَيِّبًا لِكَ ذَلِكَ قَالَ."إِنَّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ[1] أَمْرَكُمْ، فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا. [رواه البخاري، من الحديث ٢٣٥٤]

هكذا يتسامى المسلمون عن هذه المغانم الدنيوية، ويتنازلون عنها عن طيب نفس، وذلك لأنه [يوم حَمَل الفاتح المسلم سيفه على عاتقه، وانطلق عاريًا في أرض الله، لم يكن يرجو من وراء ذلك مغانم دنيوية، ولم يكن يتطلع إلى خيرات الأمم والشعوب ليستأثر بها دونها، وإن امتلأت يداه منها بغير قصد منه . ولكن كان يؤمن بدعوة ويحمل رسالة، ويحمي في العالم مبادئ الحق والعدل والإسلام][2].

*****

١- عرفاؤكم النقباء والرؤساء

٢- حسن البنا مجموعة الرسائل، ص ٣٠٨، ط- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧- غزوة تبوك

ترقُّب وحَذَر:

وصلت الأخبار إلى المدينة أن الروم يعدُّون لمهاجمة المسلمين وعروهم، فظلت المدينة تعيش في ترقب وحذر شديدين، حتى أن أهلها لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنوه زحف الروم.

ومما يشير إلى خطورة الموقف في المدينة ما حدث مع عمر بن الخطاب ﷺ حين قال: كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَكُنَّا تَتَنَاوَبُ النُّزُولَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ الخَيْلَ[1] لِتَغْزُوَنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي ثُمَّ أَتَانِي عِشَاءً، فَضَرَبَ بَابِي ثُمَّ نَادَانِي، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قُلْتُ: مَاذَا؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَطْوَلُ، طَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ[2].

[رواه مسلم، من الحديث ٢٧٠٧]

خطورة الموقف قد تُحتِّم إعلانه:

ومما زاد صعوبة الموقف وخطورته، أن هذا الوقت كان فصلاً شديد الحر، وكان الناس في عُسرة وجدب، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الخروج على هذه الحال، هذا بالإضافة إلى بُعد المسافة التي يقصدها المسلمون ووعورة الطريق وصعوبته، ولذلك

١- تنعل الخيل أي تتجهز للقتال

٢- وقد شاع في هذا الوقت أن النبي ﷺ طلق زوجاته، ولكن الحقيقة أنه اعتزلهن فقط

أعلن النبي ﷺ عن الوجهة التي يقصدها، كما روي عنه ﷺ أنه قلما يُريدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إلا وَرَّى[1] بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا[2]، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ. [رواه البخاري، الحديث ٢٧٢٩]

المسلمون يتسابقون في البذل والإنفاق:

وما أن أُعلن عن الاستعداد للخروج لملاقاة الروم، حتى تسابق المسلمون في إنفاق أموالهم في تجهيز الجيش، فهذا عثمان بن عفان ﷺ قد جهَّز عِيرًا للشام بما مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها[3]، ومائتا أوقية[4] من الفضة، فتصدَّق بها جميعًا، ثم تصدَّق بمائة بعير أخرى، ثم جاء بألف دينار فوضعها في حِجْر النبي ﷺ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ، وَيَقُولُ "مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ يُرَدِّدُهَا مِرَارًا. [رواه أحمد، من الحديث ١٩٧١٣]

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وجاء أبو بكر بماله كله، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله، وجاء عمر بنصف ماله، وتتابع الناس بصدقاتهم، كل يجود بما يملك، دون أن يمسك أحد يده إلا المنافقون.

هكذا صحابة النبي ﷺ يتسابقون في الإنفاق في سبيل الله بكل غال ورخيص، وتعلم دعاة الإصلاح منهم هذا المعنى، فعملوا على غرسه في نفوس

١- وَرَّى: أخفى

٢- مفازًا: الصحراء المقفر

٣- بأقتابها وأحلاسها: بأكسيتها

٤- الأوقية: من ٢٨ الى ٣٥ جرام

مَن حلفهم من الدعاة، فقالوا عن الدعاة: إنهم [لا يبخلون على دعوتهم يومًا من الأيام بقوت أولادهم وعصارة دمائهم وثمن ضروراتهم، فضلاً عن كمالياتهم والفائض من نفقاتهم، وأنهم يوم أن حملوا هذا العبء عرفوا جيدًا أنها دعوة لا ترضى بأقل من الدم والمال، فخرجوا عن ذلك كله لله، وفقهوا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1]، فقبلوا البيع، وقدَّموا البضاعة عن رضى وطيب نفس][2].

حرصٌ يُوجب الأجر:

وجاء فقراء المسلمين الذين لا يجدون ما يتجهَّزون به من النفقة للخروج لملاقاة الروم- وقلوبهم تفيض بالحرص على الجهاد في سبيل الله- يطلبون من النبي ﷺ أن يحملهم ويجهزهم للغزو، فيجيبهم النبي ﷺ بقوله: ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[3] فيعودون وقد حيَّم الحزن عليهم، لعجزهم عن المساهمة في رفع راية الإسلام ونصرة المسلمين، حتى فاضت أعينهم من الدمع من فرط حزنهم، وهكذا الدعاة في كل زمان ومكان [يقتطعون من نفقاتهم، ويقتصدون من ضرورياتهم، ومطالب بيوتهم وأولادهم، ويجودون به طيبة بنفوسهم سخية به قلوبهم، يودُّ أحدهم لو كان له أضعاف أضعاف فينفقه في سبيل الله، فإذا لم يجد بعضهم شيئًا تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون][4].

١- من الآية ١١١ من سورة التوبة

٢- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ١٣٣.

٣- من الآية ٩٢ من سورة التوبة

٤- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ٣٧.

ولمثل هؤلاء المخلصين الحريصين على الجهاد يقرر لهم النبي ﷺ من الأجر والثواب مثل أجر من خرجوا للجهاد، فيقول النبي ﷺ "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلا كَانُوا مَعَكُمْ" قَالوا يَا رَسُول اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَال."وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ" [رواه البخاري، من الحديث ٤٠٧١]

نهوض بعد فتور:

ومن المسلمين من فترت همّتهم أول الأمر، فلمَّا حدَّ الرحيل وانطلق الجيش أحسُّوا خطر التخلف على إيمانهم، فمضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم، ومنهم أبو خيثمة الذي عاد يومًا بعد خروج الجيش إلى أهله، فوجد امرأتيه كلتيهما قد أعدتا له الطعام الشهي والماء البارد وسط بستان الرُّطَب، فاستيقظ ضميره وقال رسول الله ﷺ في الضح[1] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصَف[2]، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فانطلق مسرعًا حتى أدرك رسول الله ﷺ

لا نغفل عن مواطن العظة.

وفي الطريق إلى تبوك مرَّ الجيش بالديار التي كانت تسكنها ثمود، وقد بقيت بعض آثارها ذكرى وعبرة لمن يحيدون عن النهج القويم، فقال النبي ﷺ "لا تَدْخُلوا مَسَاكِنَ الذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، حَذَرًا

١- الضح الشمس

٢- النصف العدل

أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ رَحَرَ[1]، فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا[2]. [رواه مسلم، الحديث ٥٢٩٣]

عناية الله ترعى المجاهدين:

ويقص عمر بن الخطاب ﷺ بعض ما أصاب الجيش من شدة وعناء أثناء سيره، فيقول خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ[3] شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع، حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل ليحر بعيره فيعصر فرثه[4] فيشربه، ويضعه على بطنه، فقال أبو بكر الصديق. يا رسول الله، إن الله عوَّدك في الدعاء خيرًا، فادعُ، فقال النبي ﷺ: "أَتُحِبُّ ذَلِكَ يا أبا بَكْرٍ؟" قال: نعم قال. فرفع رسول الله ﷺ يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء[5]، فأطلت، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر[6].

المعصية قد تهلك صاحبها:

وفي الطريق إلى تبوك[7] قال رسول الله ﷺ: "سَتَهُبُّ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَةَ رِيحٌ

١- وحر وحر الدابة، أي جعلها تسرع.

٢- خلفها: جاوزها وتركها

٣- قيظ: حرّ شديد

٤- فرثه: الفائط

٥- قالت السماء: أي أمطرت

٦- أي أن موضع المطر لم يجاوز معسكر المسلمين والحديث رواه البزار والطبراني في الأوسط بسند حسن

٧- وقيل لما بلغ الجيش تبوك

شَدِيدَةٌ، فَلا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُل، فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّئ. [رواه مسلم، من الحديث ٤٢٣]

انتصار وعودة:

ولما بلغ المسلمون تبوك لم يجدوا بها كَيْدًا، ولم يواجهوا عدوًّا، فقد آثر الروم أن يظلوا داخل حدودهم تلافيًا لملاقاة جيش المسلمين.

وحقّق المسلمون بذلك مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، لم يكن لهم أن يحقّقوها لو حدث قتال بينهم وبين الروم، وعاهد المسلمون في هذه العروة أهل أيلة وجرباء وأذرح ودومة الجندل، ثم قفلوا عائدين إلى المدينة.

يد الحقد تحاول اغتيال النبي ﷺ:

وفي الطريق إلى المدينة عند العقبة، حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ، وذلك أنه لمّا أقبل رَسُول الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: إِنَّ رَسُول الله ﷺ أَخَذَ العَقَبَةَ، فَلا يَأْخُذْهَا أَحَدٌ، فَبَيْنَمَا رَسُول الله ﷺ يَقُودُهُ حُذَيْفَةُ، وَيَسُوقُ بِهِ عَمَّارٌ، إِذْ أَقْبَلَ رَهْطٌ مُتَلَثِّمُونَ عَلى الرَّوَاحِلِ، عَشَوْا[1] عَمَّارًا وَهُوَ يَسُوقُ بِرَسُول الله ﷺ، وَأَقْبَلَ عَمَّارٌ يَضْرِبُ وُجُوهَ الرَّوَاحِلِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ لِحُذَيْفَةَ:"قَدْ قَدْ[2]"، حَتَّى هَبَطَ رَسُول الله ﷺ، فلمَّا هَبَطَ رَسُول الله ﷺ نَزَلَ وَرَجَعَ عَمَّارٌ، فَقَال:"يَا عَمَّارُ، هَل عَرَفْتَ القَوْمَ؟" قَال قَدْ عَرَفْتُ عَامَّةَ الرَّوَاحِلِ، وَالقَوْمُ مُتَلَثِّمُونَ قَال:"هَل تَدْرِي مَا أَرَادُوا؟" قَال اللهُ

١- عشوا: اردهموا عليه وكثروا

٢- قد قد: حسبك ولا تزد على ذلك

وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ."أَرَادُوا أَنْ يَفِرُّوا[1] بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَطْرَحُوهُ"[رواه أحمد، من الحديث ٢٢٦٧٦]

الصدق منجاة لأصحابه.

وما أن عاد الجيش مُظفَّرًا منتصرًا إلى المدينة، حتى توافد المنافقون إلى النبي ﷺ يعتذرون عن عدم خروجهم معه للجهاد، ويحتلق كل منهم عذرًا يبرر به موقفه.

ثم جاءه صلى الله عليه وسلم ثلاثة من أصحابه المشهود لهم بالإيمان[2] ممن تخلفوا عن الخروج، فاختاروا أن يصدقوا النبي ﷺ في القول، واعترفوا بتخلفهم دون عذر، فنهى النبي ﷺ عن الحديث معهم، وحرت صد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم.

وبعد أربعين يومًا من هذه المقاطعة، صدر صدهم أمر آخر باعتزال نسائهم، مما زاد شدة الموقف وصعوبته على أنفسهم، وظلوا هكذا حتى جاءهم الفرج من فوق سبع سموات، حينما أنزل الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3]، ففرح المسلمون، وفرح الثلاثة فرحًا لا يقاس مداه

١- يمروا بقتلوا

٢- الثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربيع

٣- الآية ١١٨ من سورة التوبة

وعايته، وكان يوم التوبة أسعد أيامهم[1].

*****

١- للتفصيل انظر البخاري، الحديث ٤٠٦٦